اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة (1)

اللغة في أصل الوضع أصوات مركبة تتألف منها كلمات ترمز إلى معان في النفس ، وقد هيأ الله تعالى الإنسان للفظ بها بما خلقه فيه من أعضاء لها القدرة على إصدار أصوات معينة ، ووهبه القدرة على التحكم فيها ، وأدائها على وجه ما اصطلح عليه مع غيره في التواصل ، وله القدرة على تطويرها والزيادة فيها وهذه الأصوات تختلف في صفاتها التي تميز بينها ، وتختلف في توزيعها وفي كمها وفي أدائها في اللغات المتباينة .

وقد أجمع علماء اللغة على أن اللغات المعاصرة امتداد للغة الأم التي تكلم بها أول إنسان ، وتعد تطورًا صوتيا للمنطوق اللغوي الأول ، وأجمعوا كذلك على أن الإنسان الطبيعي غير المعاق يتعلم اللغة عن طريق السماع والتلقين دون أن يعي مدلولها إلا بعد أن تكتمل عنده ملكة الكلام ، وينمو عقله فيربط بين الرموز الصوتية وبين ما ترمز إليه من معان في النفس ، وذلك بعد أن تلقاها من محيطه الاجتماعي مجردة من دلالتها المعنوية فالطفل يرمز بالألفاظ إلى أشياء يعاينها، ولا يدرك معناها وتليها مرحلة التذوق والتفكير التي تمكنه من الإبداع والابتكار في مجالات اللغة المختلفة وهذه المرحلة يتفاوت فيها البشر حسب قدرتهم الذهنية وملكتهم الروحية .

ولا شك أن الإنسان مر بمرحلة الكلام أو النطق أولاً ، وظل على ذلك عمرًا إلى أن ظهرت الضرورة إلى وجود وسيلة يحفظ بها كلامه ، وينقله إلى غيره عبر مسافات طويلة دون النقل الشفهي الذي لا يحتفظ إلا بمضمون المنطوق ، ويتصرف فيه الناقل ، ويطوعه لأسلوبه ، فينقل للمرسل إليه خطابا آخر غير الذي تكلم به المرسل ، فاستطاع الإنسان اختراع رموز كتابية مرت بمراحل تطور ، ورمز بها إلى ما ينطقه من أصوات ، وهذا الاكتشاف يعد أعظم نقلة حضارية في حياة البشرية ، لأن الكتابة أول مراحل الحضارة(2) ، وهي المرحلة التي استطاع الإنسان فيها تدوين تاريخه ، فاللغة المنطوقة هي

---

(1) لقد قمت بإعداد هذا البحث في عام 1997م ، 1417هـ بالهرم ، ثم أعدت النظر فيه ، فوجدته مناسبا لموضوع هذا الكتاب ، فجعلته فيه ، وقد رأيت أن أحتفظ به كما هو دون إحداث تغيير كبير في جوهره .

(2) زعم بعض اللغويين القدماء أن آدم عليه السلام أول من خط بالقلم ، ورأى بعضهم أن آدم عليه السلام تلقى الخط توقيفا أو وحيًا مثلما تلقى اللغة وحيا ، وقد ثبت لدى أهل العلم تحقيقا أن اكتشاف=

التي ميزت آدمية الإنسان عن غيره ، والكتابة هي التي دونت تاريخه ومراحل تطوره وما توصل إليه من علم ، وقد اخترع الإنسان الكتابة بعد أن استقر في مكان اتخذه وطنًا، فدفعته الحاجة إلى وضع رموز للدلالة على أشياء في وعيه.

واللغة في الأصل أصوات مركبة ، فهي ذات طبيعة صوتية منطوقة ومسموعة ، والكتابة رمز مجرد لهذه الأصوات المنطوقة ، وتجسيد لها وتعبير عن واقعها الصوتي في أقرب صورة رمزية مرئية ، وتقوم الكتابة بحفظ هذه الأصوات المسموعة مدونة لفترة طويلة دون تغيير أو تحريف عن الأصل الذي كتبت به ، لأن النص المدون ثابت ، بيد أن الأصوات المنطوقة غير ثابتة ، وإذا أراد الباحث دارسة اللغة دراسة علمية صحيحة درس صورتها المنطوقة أو الصوتية لا النص المكتوب ؛ لأن اللغة في أصل الوضع أصوات مسموعة ، والكتابة لا تمثل صورتها الصوتية على ما هي عليه في الأداء الصوتي ، فكثير من العناصر الصوتية المنطوقة لا تظهر في الكتابة ولا تعبر عنها ، مثل النبر والتنغيم وطبقة الصوت ، وهي عناصر تشارك في الدلالة ، وزيادة على ذلك أن الخط العربي لا يدون اللغة تدوينا مقطعيا بل صوتيا فقط ، فهو يدون الصوامت دون حركاتها عدا الحركات الطويلة فقط ، وليس في الخط ما يدل على بداية المقطع ونهاية قمة الإسماع فيه ، وليس في الخط ما يرمز إلى الحركة التي تصاحب نطق الصامت ، فالقارئ يحتاج أولا أن يفهم المعنى حتى يتمكن من القراءة الصحيحة ، والأصل أن نفهم المعنى مما نقراءه ، فاستحدث علماء العربية الحركات فشكلوا بها الكلمات .

فالخط ذو إمكانيات معينة في التعبير عن الواقع الصوتي ولا يحمل في رسمه صورة دقيقة للمنطوق ، وهذا شأن جميع الخطوط في كل اللغات بيد أن بعض الخطوط تعبر عن أصواتها عن غيرها من خطوط اللغات الأخرى ، لأن نظامها الكتابي وضع رموزا تعبر عن

= الكتابة وابتكارها وقع في وقت متأخر ، وساهمت فيه أمم عديدة – قيل السومريون أو الأجاريتيون ، أو الفينيقيون وقيل غير ذلك – والذي نحن عليه أن الحضارات القديمة ساهمت في وضع الخط وتطوره ، ومازال الخط يحتمل التطوير حتى الآن. وقد جاء في كتاب الصاحبي لابن فارس ، والمزهر للسيوطي وصبح الأعشي في صناعة الإنشا للقلقشندى وكتب الإنشاء وأدب الكُتَّاب روايات تخبر أن آدم أول من كتب أو تعلم الخط وقيل إسماعيل عليه السلام وقيل غير ذلك ، والله أعلم .

جميع الأصوات الأساسية والثانوية ، والخط العربي لا يمثل جميع أصوات اللغة العربية ، لأن العرب استعاروه من غيرهم واستحدثوا فيه رموزا جديدة ليتلاءم مع النظام الصوتي في العربية ، لكنه لا يحمل تصويرا دقيقا له ، فقد رمز الخط العربي إلى الأصوات الصامتة مثل الهمزة ، والباء، والتاء ، والثاء ... ... ورمز كذلك إلى الحركات الطويلة ، وهي ألف المد ، واو المد ، وياء المد ، ولكنه لم يرمز إلى الحركات القصيرة برموز كتابية تدخل ضمن رموز الكتابة العربية ، واستدرك علماء العربية ذلك بوضع علامات إضافية في الخط ترمز للفتحة القصيرة والضمة والكسرة ، واستحدثوا رمزًا للسكون ، ولكن هذه الرموز الثانوية لا تعد أصلا في الخط ، وليس الكاتب ملزما بها بل هو مخير فيها ، ويعد هذا قصورا في الخط ؛ لأن القارئ لا يستطيع أن يميز بين نوع الحركة أو الساكن والمتحرك من خلال الخط إن لم يكن مشكولا أو مضبوطا برموز الحركات الإضافية ، فهو لا يستطيع التمييز بين المصدر والفعل في «ضرب» مجردًا من الشكل ، ولا يستطيع كذلك معرفة المعلوم والمجهول منها إن كانت فعلا ، لعدم وجود حركة أو رمز يدل على طريقة النطق المراد به المعنى.

ولا نستطيع كذلك التعرف على المضعف وغير المضعف من الأصوات في الخط دون رمز يدل عليه في مثل: «قتل» بتضعيف التاء لدلالة على المبالغة ، فاختلاف الحركة يؤدي إلى اختلاف المعنى في الكلمة السابقة ، واحتمال الجيم الحركات الثلاث في كلمة «جنة» يؤدي إلى ثلاثة معاني متباينة .

وهذا أقوى دليل على مشاركة الحركات في الدلالة في اللغة العربية وأنها جزء من المعنى التركيبي أو معنى الجملة ، وقد بينا ذلك في حديثنا عن الرموز الصوتية [1] .

ودليل آخر عن عجز الحروف أو النظام الكتابي عن التعبير عن كل أصوات اللغة ، أن مجموع أصوات اللغة أكثر من مجموع الحروف التي تكتب بها ، وقد يوجد في اللغة المكتوبة رموز كتابية لا تمثل أصواتا في الكلمة مثل: الألف التي تلحق واو الجماعة في الفعل الماضي قتلوا ، ذهبوا ، ليس لها وجود صوتي ، ولكنها زيدت في الخط للدلالة على واو الجماعة حتى

---

(1) ارجع إلى كتابي التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة دار النشر للجامعات وحديثنا عن حركات الإعراب في الدلالة الصوتية .

لا تلتبس بواو بنية الكلمة أو أن يظن أنها من كلمة أخرى إذا جاءت في كلمة لا تتصل حروفها أو أن يظن أنها واو العطف إذا وقعت في آخر الكلمة ، وكذلك توجد بعض الكلمات بها أصوات لا ترمز إليها في الخط وهي غالبا متأثرة بنظام الرسم القديم مثل: الله (تعالى) ، والرحمن ، ويسن ، وهذا وهذه وهؤلاء، وغيرهن من الكلمات اللائي لم يرمز فيهن إلى الألف (الحركة الطويلة) برمز كتابي ، ويوجد في اللغة العربية رمزان كتابيان يرمزان إلى صوتين أحدهما صامت والثاني صائت (حركة مد) وهما رمزا الواو (و) ، والياء (ي) ، فالواو في «ولد» «ورد» صوت صامت متحرك في العربية ، بيد أنها في شكور ، غفور ، صوت صائت(حركة مد طويل في اللغة العربية) ، وكذلك الياء الأولى في ياسين ، ويزيد صوت صامت متحرك ، والياء الثانية صوت صائت (حركة مد طويل) [1].

وتوصل العلماء من ذلك إلى دراسة اللغة العربية من خلال صورتها المسموعة في الأداء دون نصها المكتوب الذي لا يمثل جميع أصواتها ، ونصل من ذلك أيضا إلى أن اللغة المنطوقة هي ألأصل في الوضع ، وليس النص المدون ، ونصل من هذا إلى أن اللغة نوعان نوع منطوق أو شفهي أو شفاهي ، ونوع مكتوب مدون ، ولكل نوع سمات خاصة تميزه عن الآخر ، وهذان النوعان يشاركان في التواصل الاجتماعي ، فاللغة وسيلة الاتصال الأولى في المجتمع ، ويتحقق هذا التواصل اللغوي في شكلين أساسيين هما: اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة .

أولاً: اللغة المنطوقة

اللغة المنطوقة هي لغة الأداء الصوتي الذي تظهر فيه جميع العناصر الصوتية الأساسية والثانوية ، أو هي: لغة الخطاب اليومي الشفهي . والأصوات هي أصل طبيعة اللغات جميعا ، فأية لغة أصوات منطوقة ، وهذا هو الأصل ، أما كتابتها فمرحلة تالية لنطقها ، ولا تعد الأصل فيها . ومصطلح اللغة المنطوقة قد يعني اللغة الشفهية، وقد يعني اللغة المقروءة، ومصطلح اللغة الشفهية أدق تعبيرًا عن لغة الخطاب اليومي، وقد يراد باللغة المنطوقة

---

(1) ارجع إلى أسس علم اللغة العربية ص 9 ،10 ، 11 . وقد بينا ذلك في الرموز الصوتية .

مصطلح اللغة العام، وهي تقارب ما يعرف بالتعبيرات غير اللغوية التي تؤدي معنى لغويًا مثل: الحركات والإشارات، والرموز، وهذه الأشياء ليست لغة بل رمزًا تعبيريًا .

واللغة المنطوقة من الناحية التاريخية أسبق من اللغة المكتوبة ، فالإنسان تعلم اللغة أولاً ونطق بها ، ثم اخترع رموزا كتابية لترمز إلى أصوات اللغة ، ولم يستطع وضع الحروف إلا بعد أن اكتشف أصوات اللغة فرمز إليها برموز ، وقد دونت بعض اللغات القديمة في مرحلة متأخرة فحفظ بعضها من الضياع مكتوبا ، وهناك لغات لم تتح لها فرصة التدوين ، فاندثرت فلم نر لها من باقية تدلنا على شيء من مفرداتها أو قواعدها .

وإن معظم اللغات التي يتكلمها العالم اليوم لم تكتب إلا بعد فترة متأخرة من وجودها ، فبعضها كتب في زمن حديث ، والكثير منها كتب مؤخرا ، ومازالت في العالم لغات منطوقة لم تكتب مثل لغات بعض القبائل في أفريقيا ولغات الهنود الحمر في أمريكا ، واللغة النوبية في جنوب مصر، وهذه اللغات في طريقها إلى الفناء وبعض اللغات التي ليس لها نظام كتابي استعارت حروفا من لغة أخرى وطوعتها لنظامها الصوتي بزيادة أو تعديل[1].

واللغة المنطوقة أسرع تطورا وانتشارا ، وأكثر تداولا في الخطاب اليومي ، كما أنها تعد حقلا غنيا للعامية الدارجة ، فاللهجات والعامية الدارجة موطنها الأصلي اللغة المنطوقة ، وقد تعني اللغة المنطوقة عند بعض اللغويين النص المقروء ، «ونبادر هنا إلى القول بأننا لا نعني باللغة المنطوقة ما يقابل لغة الكتابة أو اللغة الفصيحة التي تقابل اللهجات المحلية ، وإنما نعني بها الشكل المنطوق للغة الكتابة . فالتفرقة بين هيئتين للخطاب بلغة واحدة . وهذا هو المفهوم العلمي في البحوث المتخصصة في اللغة المنطوقة في اللسانيات الحديثة »[2].

وقد عرفها بعض المحدثين بأنها الكلام التلقائي المصوغ صياغة حرة في مواقف تبليغية

---

(1) ارجع إلى: منهج البحث في الأدب ، ماييه ، ترجمة الدكتور محمد مندور ، دار العلم للملايين 1946 ص95 ، 96.

(2) اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة «بحث في النظرية» دكتور محمد العبد دار الفكر العربي للدراسات والنشر والتوزيع . القاهرة ط1 ، 1990م ص61 .

طبيعية . أو أنها تعني لغة الخطاب اليومي لا النظام اللغوي . ويستعمل مصطلح (الموقف التبليغي Communications situation) مرادفا لموقف الكلام Speech situation . ويندرج تحت الموقف التبليغي الموقف الاجتماعي Social situation الذي يصنعه شخصان على الأقل ، يشتركان في أفعال شفهية محددة في نوع من التفاعل الممركز entrierte interoktionz والتفاعل الممركز يعني كما يشير (جوفمان goffman) – توجه اهتمام المشتركين في الكلام مرارا إلى شيء أو موضوع بعينه [1].

واللغة المنطوقة لها السبق من الناحية التاريخية ، فقد كانت المرحلة الأولى للاتصال الشفوية أو الشفاهية ، والتي تعد سابقة في كل اللغات ، فاللغة أولاً منطوقة ثم تلتها مرحلة الكتابة ، وهناك بعض اللغات نشأت وأخذت مكانها اجتماعيا ثم زالت من الوجود ، ولم تبق لنفسها رسما كتابيًا يحفظها أو يبقي بعض من آثارها ، كما أن عدد اللغات العالمية يتزايد كثيرا جدا عن عدد الحرف الهجائية يقول (فيليب بروتون): «تعد اللغة من المسلمات التاريخية التي سبقت بكثير اختراع الكتابة أو الخطابة . وبينما يحصي اللغويون ثلاث آلالف لغة منطوقة حاليا (وأربع آلاف لغة أخرى اندثرت) ، فإن المدون منها لا يتجاوز المائة بفضل الكتابة (سواء الرمزية الأبجدية [2] أو غيرها) وبعض اللغات بل معظمها اقترض حروفًا هجائية من لغات أخرى مجاورة أو دخيلة أو تغلبت على نظامها الكتابي بما لها من خط متقدم ومبسط» [3]. فالعرب تعلموا الكتابة من بعض إخوانهم الشماليين الذين خالطوا السريان والفنيقيين، وأقباط مصر أخذوا الكتابة عن اليونانيين وبعض الأمم التي دخلت الإسلام أخذوا الكتابة العربيةوزادوا فيها ما يعبرعن لغتهم .

والشفوية أصل في النصوص القديمة ، ومرت بها معظم الآداب القديمة ، فكانت تلقي على السامعين وتحفظ عن ظهر قلب ، ويرونها جيلا بعد جيل إلى أن سجلت ، كما هو

---

(1) المصدر السابق .

(2) ثورة الاتصال نشأة أيدلوجية سيرج برو (فيليب بروتون) . ترجمة هالة عبد الرؤوف مراد . دار المستقبل العربي . 1993م . ص15 .

(3) المصدر السابق .

الحال في التراث الجاهلي الذي بدأ تسجيله على رأس المائة الثانية من الهجرة تقريبا [1]. ولم يكن للرمز الكتابي أهمية في بدء التدوين، فالعلماء لم يعتمدوا عليه في نقل الرواية وفضلوا المشافهة؛ لأنها كانت تحافظ على الأداء الصوتي للنص بكل ما يحمله من دلالات تعبيرية، ولم يك نظام الكتابة ناقلاً أمينًا؛ لأنه كان عرضة للتخريف والتصحيف والخطأ، وكان لا يدون العناصر الصوتية ولم يعتمد عليه رواة العرب بقدر ما اعتمدوا على السماع والحفظ ، فكانوا يسمون الخطأ واللحن تصحيفا بل كانوا يذمون من يعتمد على الصحف دون الحفظ ، لأن الرواية السماعية كانت تحتفظ بها للنص من سمات صوتية ، وكانت تلك النصوص تبدع وتحاك وتمحص في خلد مبدعها دون أن يكتبها ، وكانت تلقي أيضا سماعا ، ومن المسلم به أن الكتابة أو التسجيل سيفقدها كثيرا من محتوياتها ، فالأداء الشفهي أكثر دقة فيها من الكتابة التي تفقد اللغة حيويتها وحركتها. وتحولها إلى جسد ميت لا حياة فيه .

ولعل من أعظم الأدلة على سبق الشفوية أن مرحلة الكتابة جاءت بعد مرحلة التكلم ، وأن معظم اللغات اخترعت رموزا كتابية لها ، وسجلت بعض آثارها بعد فترة متأخرة من ظهورها ، بل هناك لغات ليس لها نظام كتابي ، ولهذا لم تجد ما يحفظها ، وتلاشت واندثرت آثارها من حافظة ناطقيها بتغلب لغة أخرى أو هلاك أصحابها [2].

وما زال الأدب الشعبي يعتمد على الشفوية التي قيلت بها النصوص القديمة والتي سجلت متأخرة بعد انتشار الكتابة عند معظم الأمم ، والأدب الشعبي مثال صادق وأمين على مرحلة الشفوية العفوية التي تحدث الإنسان بها منذ هبوطه على الأرض حتى الآن ، وهي الشفوية التي رددت بها النصوص القديمة زمنًا طويلاً ، وهذا يدل على أن الخطاب الشفوي كان أسبق وجودًا من المكتوب ، وأكثر تأثيرًا ، وأوسع انتشارا ، فالإنسان العادي ينتج من الحديث أكثر مما ينتج من المكتوب ، كما أن المجتمع اللغوي يوجد بين أفراده أميون (تتفاوت نسبتهم من مجتمع وآخر) لا يستخدمون الكتابة ، وهذا هو السبب في أن كثيرا من

---

(1) مقال: (الكتابة ومفهوم النص) عبد الملك مرتاض (دكتور بجامعة وهران) ، مجلة (اللغة والآداب) جامعة الجزائر ، قسم اللغة العربية وآدابها عدد 8 (ملتقى علم النص) 1986 ، 1406هـ . ص25

(2) ارجع المصدر السابق ص26 ، 27 .

علماء اللغة المعاصرين يعطون اهتماما كبيرا للغة المنطوقة ، ويعدونها الشكل الأساس على حين يوجهون إلى اللغة المكتوبة اهتماما أقل [1] . والدراسات الغربية اتجهت نحو الخطاب المنطوق واهتمت به اهتمامًا كبيرًا، ودعت إلى دراسة اللغة الشفهية، وتأثر بهم بعض العرب، فعكفوا على دراسة العامية، وأسرفوا في الحديث عن أهميتها، وهذا الاتجاه له خطورته على لغتنا العربية.

وقد كانت لغة العرب لغة شفاهية ذت تراث شفاهي ، فالعرب أمة أمية لا تعرف الكتابة ، فحفظ العرب تراثهم في أفئدتهم حفظا ورواية إلى أن دونوه بعد أن دونوا القرآن الكريم والحديث ، وفكروا في جمع اللغة وآدابها ، فكتبوا ما يحفظونه من شعر ونثر عن أجدادهم الجاهلين ، كما دونوا بعض لهجات القبائل ولم يهملوها مشهورة أو شاذة ، بل تناولوها في أطراف أحاديثهم ، وسموها لغات مثل لغة تميم والحارث بن كعب وطيىء ، وقاسوا على تلك اللغات التي خرجت عن العرف اللغوي في بعض الخصائص ، واهتموا بالجانب الصوتي ، والكلمات ، فالعرب اهتموا بالكتابة الصوتية ، ولم يكن ذلك إلا مظهرا من مظاهر الاهتمام باللغة المنطوقة ، واهتموا بالمشافهة والسماع في جمع المادة اللغوية ، بما نقلوه عن الرواة أو الحفاظ ، ووضعوا قاعدة السماع والقياس عليها في النحو لضبط قواعد اللغة ونطقها ، ولهذا اهتموا بتسجيل اللغات والاحتجاج بالمأثور المجمع عليه ، ونفروا من التصحيف والتحريف . ولم يكن هذا الأمر عفويا ، بل كان مضبوطا بقواعد محكمة ، وضعها علماء اللغة والنحو ، فاللغوي ينقل ما سمعه دون تصرف ، ويذكر مدى حجته ، ومن نقل عنه ، ووظيفة النحوي أن يختار لنفسه الحجة ويقيس عليها [2] . يقول السيوطي مفرقا بين دور النحويين واللغويين في الاحتجاج بما نقل عن العرب من قول مأثور: «اعلم أن اللغوي شأنه أن ينقل ما تنطق به العرب – ولا يتعداه– وأما النحوي فشأنه أن يتصرف فيما ينقله اللغوي ، ويقيس عليه» [3] . فعالم اللغة يرصد الظاهرة دون تدخل فيما ينقله سماعا ، ويسجلها ويبوبها ، على النحو الذي تلقاها به .

---

(1) مدخل إلى اللغة العربية ، دكتور محمد حسن عبد العزيز ، دار الهاني للطباعة (دون تاريخ) ص160 .

(2) بناء الجملة العربية – محمد حماسة عبد اللطيف – دار الشروق ط1/ 1996م 1416هـ . ص16 ، 17 .

(3) المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، السيوطي (عبد الرحمن جلال الدين) تحقيق محمد جلال المولى [بالاشتراك مع آخرين] ، دار إحياء الكتب العربية (مصر) د– ت ، ط3 ، جـ1/ 59 .

وقد اهتم العرب بالجانب النطقي أو الأداء الصوتي في شتى فنونهم المنطوقة أثناء الإلقاء كالخطابة بجميع أنواعها ، والشعر ، واستخدموا في ذلك بعض المصطلحات التي تصف النطق عند القراء والبلاغيين مثل: التلوين الصوتي من حيث التنغيم والإيقاع وارتفاع الصوت وانخفاضه ، والهمس والجهر ... وحددوا أوصاف النطق الشفوي ، فوضعوا قواعد الوقف والابتداء ، والمطالع والخواتيم ، ويمثل إلى جانب هؤلاء الأدباء واللغويون .

وقد فطن علماء اللغة إلى أهمية الخطاب المنطوق أو الحديث المنطوق ، أو الشكل الأدائي للكلام ، لأنه يمثل الطبيعة الصوتية للغة ، ويحمل خصائصها الصوتية التي تشارك في التعبير [1].

واكتشف علماء العرب هذه الطبيعة الصوتية قال ابن جني (ت 392هـ) معرفًا اللغة بأنها: «أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم» [2] فاللغة أصوات منطوقة وليست كتابة، وهذه الأصوات تدل على معنى، وتختلف باختلاف المجتمعات، فكل جماعة منهم تعبر عن نفسها بلفظ خاص، وقد سبق ابن جني الغربيين في هذا الكشف وهو من أبناء القرن الرابع الهجري. ويوظف مصطلح «الكلام» في أكثر من موضع ، ويقف عنده أحيانا وقفات متأنية ، شارحا مفهومه ممثلا لمادته ، كأن يقول مثلا « فأما الكلام فكل لفظ مستقل بنفسه ، مفيد لمعناه ، وهو الذي يسميه النحويون الجمل »، وكقوله أيضًا « فكل لفظ استقل بنفسه ، وجنيت منه ثمرة معناه فهو كلام » [3].

وقد يفهم من قول ابن جني السابق أنه يخلط بين اللغة والكلام ، ولكن القارئ الواعي لا يستطيع أن يجزم بهذا التفسير ذلك أنه في تعريف «اللغة» استخدم كلمة «أصوات» ، والأصوات في جانبها الأدائي المعبر لا تكون إلا في الكلام المنطوق ، كما أنه ينهي عبارته في تعريف الكلام بقوله: « وهو الذي يسميه اللغويون الجمل »، ومصطلح الجمل مصطلح ذو

---

(1) علم اللغة الاجتماعي . (مدخل) الدكتور كمال بشر ، دار الثقافة العربية (مصر) 1994م ص16 .

(2) الخصائص ، ابن جني ، تحقيق محمد علي النجار . دار الكتب المصرية . 1371هـ 1952م 1/ 33 .

(3) المصدر السابق 1/ ص18 ، 19 . ونقل عن سيبويه: قال سيبويه: « واعلم أن قلت القول ما كان كلاما لا قولاً » .

مفهوم تجريدي (لا أدائي) ينضم إلى جملة المصطلحات الأخرى الضابطة لقواعد اللغة لا الكلام ، ولكنه يوجه اهتمامه واحتفاءه بالمنطوق ، وتؤكد النصوص التي استشهد بها ابن جني أنه منشغل بالجانب الأدائي الواقعي للغة ، وهو الكلام Parole. ومما يؤكد احتفاء ابن اجني بالكلام المنطوق عوده إلى مصطلح « الكلام » مبينا أصله اللغوي ودلالته العامة في كلام العرب . يقول في معرض التفريق بين « القول » و « الكلام » القول تحرك به الشفاء سواء أكان له أثر يدوم في حياة الناس أو لم يكن ، وأما الكلام فهو من الأصل اللغوي نفسه الذي منه جاءت لفظة « كلم » (بتسكين اللام) وهو الجرح ، والمكلوم هو الجريح ، فالكلام هو ذلك الذي يحز الجلود حزا ، ليدوم له في حياة الناس أثر وليترتب عليه – بالتالي – فعل يغير من صورة تلك « الحياة »[1] ، يقول الدكتور كمال بشر: « وبديهي أن الذي يؤثر في حياة الناس ، ويقع منهم موقعا فاعلا محدثا بهم وبحياتهم شيئا من التغيير هو الخطاب المنطوق المعبر عنه باللفظ في كلام ابن جني السابق[2]. وعلى هذا المفهوم نفسه جاء قول امرئ القيس[3]:

ولـــو عـــن نثـــا غـــيره جـــاءني وجـــرح اللـــسان كجـــرح اليـــد

واللسان هنا (وإن كان يطلق على اللغة في عموم معناها) المقصود به (الكلام) الذي يناظر أثر اليد ، وهي جارحة الجوارح التي إن وظفت أنجزت وغيرت ، وقد يكون التعبير بالجرح ، وكذلك اللسان (الكلام) يجرح (أي يؤثر تأثيرًا سيئا في بعض حالاته) .

ويدخل في إطار الاهتمام « بالكلام » (الخطاب المنطوق) ما يجري علي سلوك العامة والخاصة جميعا في المواقف الاجتماعية من نحو قولهم: سامع كلامي؟ سمعت ؟ اسمع أولاً .... إلخ ، إذا السماع أثر فيزيائي لأصوات منطوقة بالفعل تعمل عملها في ذهن السامع

---

(1) الخصائص 1/ ص14 .

(2) علم اللغة الاجتماعي (مدخل) ص 68 .

(3) امرؤ القيس بن حجر الكندي ، والبيت بديوانه تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . دار المعارف . مصر ط5 ص185 والبيت من بحر المتقارب ، وهو: ولو عن نثا غيره جاءني وجرح اللسان كجرح اليد

وسلوكه جميعا ، وعليه جاء قول شاعرهم [1]:

لـو يـسمعون كـما سـمعت كلامهـا خـــروا لعـــزة رُكعـــا وســـجودا

وقد يستخدم المصطلح « الكلام » أحيانا في معنيين ينسحبان على « اللغة » و « الكلام» في نظر القائلين بالتفريق بينهما ، ومنه قول قائلهم [2]:

إن الكـــلام لفـــي الفـــؤاد وإنـــما جعـــل اللـــسان عـــلى الفـــؤاد دلـــيلا

فالكلام في الشطر الأول قد يعني « اللغة » بمعنى القواعد والضوابط الكامنة في العقل (المعبر عنه بالفؤاد) ، ولكنه في الشطر الثاني قصد به الأحداث المنطوقة الفعلية [3] ويُأوّل مفهوم البيت بتفسير آخر ، هو الاهتمام باللسان (الكلام المنطوق) لا بالمخزون العقلي من ضوابط اللغة وقواعدها ... وإنما المهم ما يقول اللسان ويفصح عنه ، ودليل هذا الاهتمام باللسان البنية اللغوية المسبوقة بالأداة « إنما » دليل الحصر لبيان مزيد من الاهتمام وقصر الإفادة عليه [4].

وقد اهتم النحاة بالمنطوق الذي ترتبط به الفائدة ، ولا فائدة لمنطوق ما لم يلق مسرحه ومقامه الملائم له ، ويظهر هذا واضحا من افتتاحية ابن مالك لألفيته ، حيث يستهل عمله هذا بقوله: كلامنا لفظ مفيد كاستقم [5]. فالإخبار عن الكلام باللفظ دليل على إرادة الملفوظ أو الخطاب المنطوق ونعت هذا اللفظ بالمفيد لبيان قيمته ودلالته ، ولا تكون هذه القيمة ولا تتحق تلك الدلالة إلا في سياق اجتماعي ، تتواءم جوانبه مع هذا المنطوق وبنيته اللغوية ، والأهم في الدلالة في هذا التفسير ، تمثيله « الكلام » بعبارة « استقم » في صيغة الأمر ، والأمر خطاب مباشر ، والخطاب كلام موجه إلى متلق ، وليس مجرد أصوات ترسل

---

(1) كثير عزة .

(2) الخصائص 1/ 20 .

(3) علم اللغة الاجتماعي « مدخل » ص 68 .

(4) المصدر السابق ص 69 .

(5) (شرح ابن عقيل) بهاء الدين عبد الله بن عقيل ، تحقيق وشرح محمد محيي الدين عبد الحميد ، مكتبة دار التراث – القاهرة – ط20/ 1400هـ 1980م ص13 .

في الهواء ، أو تحاور مع النفس ، ودون أداء فعلي وعقلي.

ويؤكد الدكتور بشر أن سياق العبارة التي جاء فيها (كلامنا) مقصود به الخطاب المنطوق ، لأن « قواعد اللغة وضوابطها لا تستخلص ولا يمكن الحصول عليها إلا من مادة واقعية منطوقة ، وهي « الكلام » ، ومن ثم تدارك الأمر وأتبع مصطلحه هذا « كلامنا » ، وعين مقصوده بـ « اللفظ » أي الملفوظ المنطوق ، وتفسيرنا هذا يأتي على وفاق تفسيرنا لمقولة ابن جني السابقة: « اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم » ، فعلى الرغم من توظيف مصطلح « اللغة » صراحة ، فإن بقية العبارة تشير بلا التواء إلى احتفائه بالمنطوق المعبر عنه بالأصوات في العبارة ذاتها [1].

ويختتم الدكتور بشر بقوله: « وتفسيرنا هذا الذي ذكر عبارات هذين العلمين الكبيرين يتمشى جملة وتفصيلا مع آراء جمع من الثقاة المحدثين الذين يعرفون اللغة بأنها « أصوات تعبر عن معان ... » وحقيقة الأمر أن اللغة مهما اختلف الدارسون في تحديد مفهومها – قوامها وعمادها « الأصوات » أي الكلام المنطوق ، وغاية الأمر أن قوما منهم يؤكدون على ذلك الجانب المستخلص من هذه الأصوات (وسموه اللغة) ، وآخرين همهم الأول والأخير دراسة هذا المنطوق نفسه (الموسوم بالكلام عند بعضهم) ، فالقبيلان لا ينكران هذا المنطوق ولا حقيقته . وإن كان فريق منهم لا يأخذه في الحسبان أخذا مناسبا في دراسته وفقا لرؤيتهم الخاصة ، وتساوقا مع منهجهم الذي اختاروه [2].

ولقد تحول الأمر إلى صالح اللغة المكتوبة بعد أن كانت مهملة عند القدماء، فقد اعتد الجيل الثاني من بعد عصر التدوين بما دونه الأولون من تراث الأمة الشفهي، فأصبح هذا التراث المدون مصدرًا للعلماء يثقون به وينقلون عنه ويردون الرواية الشفهية غير المتواترة خشية لما يقع فيها من خلط وتقديم وتأخير وتبديل وزيادة أو وضع .

ولعل من الأسباب التي جعلت اللغة المكتوبة قديما أهم من المنطوقة أن النحاة التقليدين قدموها ، واهتموا بها وأضفوا عليها صفة القداسة ، واعتبروها الأساس وسفهوا

---

(1) علم اللغة الاجتماعي ص70 .

(2) المصدر السابق ص71 .

أمر المنطوق ، لأنه يتعرض للفساد ، وظل تعقيد اللغة وتحليل مستوياتها معتمدا على الشكل المكتوب باعتباره أساسا للقراءة والتكلم [1].

ونسبته إلى القدماء جعلت له مكانة خاصة عند العلماء الذين اعتمدوا على آراء العلماء في التأليف، ونقلوا عنهم واحتجوا برأيهم ، وقد أصبحت اللغة المنطوقة في القرن الثالث الهجري مهملة، فلم يعبأ العلماء بها ووكلوا أمرهم لمن سبقهم في النقل والرواية والاحتجاج.

ولكن اتجه البحث اللغوي حديثا نحو اللغة المنطوقة ، باعتبارها أكثر دورانا وانتشارا ، وقد ساعد على ذلك الأجهزة الحديثة التي ساعدت على حفظ المادة المنطوقة مسجلة ، كما وضعوا رموزا جديدة للأصوات المنطوقة ، واستخدموا في الدراما الأجهزة الحديثة في تسجيل الكلام وتحليله وابتكروا نظاما جديدا يحصى فيه كل صوت ينطق عن طريق الكتابة الصوتية « Phonetical alphabet » [2] وقد تبني هذا الاتجاه علماء اللغة الغربيون ، وتأثر بهم بعض العرب من أتباع الحداثة والتنوير ! والخطاب اليومي المعاصر يحتاج معالجة علمية ترتضى بمستواه اللغوي.

وقد اهتمت الدراسات الحديثة سواء مجال الدراسات اللغوية أو الدراسات الأسلوبية باللغة المنطوقة الحية وأعطتها أهمية كبيرة ، وبرز هذا الاهتمام في مجال دراسات اللهجات ، وبيان ملامحها الصوتية وارتباطها باللغة المشتركة أو الفصحى .

واهتمت أيضا بلغة الحديث اليومي ، فالمدارس اللغوية الحديثة اعتنت باللغة الحية لغة الحديث الفعلية في فترة زمنية محددة ومعاصرة ، وبذلك أتت دراساتهم وصفا حقيقيا واقعيا للغة ما ، كما هي مستخدمة حاليا لا الاستخدامات التي عفاها الزمن ، وأصبحت في بطون الكتب أو أمثلة مصنوعة [3]. وهي دعوة إلى معالجة اللغة معالجة حديثة تعتمد على توظيفها في الخطاب المعاصر، وذلك في ضوء قواعد اللغة ومعجمها، فلغة الخطاب اليومي

---

(1) اللغة المنطوقة والمكتوبة (بحث في النظرية) الدكتور محمد العبد ص13 .

(2) العربية والغموض . دراسة لغوية في دلالة المبني على المعنى . الدكتور حلمي خليل ، دار المعرفة الجامعية – الإسكندرية ط 1988م ص175 .

(3) اللغات الأجنبية تعليمها وتعلمها ، الدكتور نايف خرما ، والدكتور على حجاج ، عالم المعرفة – الكويت عدد 126 ، 1408هـ ، 1988م . ص29 .

تحتاج تقويمًا يسددها إلى مستوى اللغة الفصحى.

وتعد المدرسة البنيوية « The structural School » رائدة البحث في الخطاب المنطوق ، فقد أولت اهتمامها له ، فكلف أعضاؤها بدراسة « لغة الحديث الشفهي بالدرجة الأولى » ، خلافا لما كان يفعله التقليديون ، واعتبروا هذا المظهر من مظاهر اللغة الأولى والأساس والأهم ، بينما أتت دراستهم للغة المكتوبة تالية وثانوية [1].

وترجع الأهمية الحقيقية في دراسة الخطاب المنطوق – في الخمسينات – إلى تلاميذ دي سوسير من أمثال سابير ثم بلومفيد ثم سكينر ، وأتى من بعدهم ويلز وهاريس وبايك وفريز من علماء اللغة التطبيقيين ، وقد امتد أثر هؤلاء في الدراسات اللغوية النظرية في أواخر الخمسينات من القرن الحالي ، ولكن ما زالت الشكوى موجودة من إهمال البحث الجاد في اللغة المنطوقة ،وبالرغم من أن رائدا مثل فيرث Firth قد دعا اللغويين منذ أكثر من نصف قرن إلى دراسة المحادثة ، حيث إنها المفتاح إلى فهم أفضل لماهية اللغة ووظيفتها ، فإن الدراسة الجادة للخطاب المنطوق Spooken Discourse لم يسبق إليها اللغويون وإنما سبق إليها ونبه إلى أهميتها الاجتماعية علماء اللغة والأنثروبولوجيا .

ويؤرخ العلماء البداية الحقيقية لاكتشاف اللغة المنطوقة باعتبارها موضوعا من موضوعات علم اللغة ببداية الستينات من هذا القرن .فمنذ تلك الفترة انتشر البحث بين اللغويين في اللغة المنطوقة مقارنة بنظيرتها المكتوبة من الناحيتين: النظرية والتطبيقية [2].

والحقيقة أن أول من درس اللغة المنطوقة أو لغة الخطاب اليومي هم علماء اللغة الأوالى، فقد عالجوا لهجات القبائل، ولهجات سكان المدن، وعرّفوا الفصيح منها والرديء

---

(1) اللغات الأجنبية ص28 .

(2) اللغة المكتوبة والمنطوقة .بحث في النظرية ص14 . نحن لا نميل إلى دراسة لغة الخطاب اليومي أو العامية ، لأن شخصية اللغات الأوروبية تختلف عن شخصية العربية ، فاللغات الأوربية لغات حديثة متطورة عن لغات أخرى بيد أن العربية لا يصح منها إلا مستوى اللغة الفصحى ، ويجب أن ننهض بالخطاب اليومي إلى درجة اللغة الفصحى ، وأن لا نعطيه رعاية تؤكد وجوده في مقابل الفصحى ،فيصبح لدينا ازدواجية لغوية ، ونحن نريد خطابا واحدا بلغة واحدة هي لغة القرآن الكريم.

والدخيل وقياس ذلك في العربية، ونجد ذلك في «كتاب سيبويه» الذي بحث اللهجات المعاصرة له وقياسها في العربية وبعض العلماء أفردوا كتبًا لمعالجة كلام العوام وحكمه في العربية، فأثبتوا فصاحة بعضه وضعفوا بعضًا ولحنوا بعضًا.

ويرى الدكتور محمد العبد أن الاتجاه نحو بحث الخطاب المنطوق [في الغرب] قد تم على مراحل وهي:

المرحلة الأولى: دراسة اللهجات وجمعها وبيان خصائصها ومقارنتها باللغة الأدبية أو المعيارية ، فظهر علم اللهجات Pialectology ففهمت اللغة المنطوقة – في تلك المرحلة – على أنها تعني اللهجة أو اللغة الدارجة أو العامية [1].

المرحلة الثانية: نهضة البحث في الطبقات اللغوية Sprochs التي ارتبط النشاط فيها بموضوعات رئيسية في اللغة الدراجة وذلك في الخمسينات من هذا القرن . وقد بدأ التصنيف في مجال بحث طبقات اللغة ثلاثيا: اللغة المكتوبة Geschriebene Sprache واللغة الدراجة Umgangss Prache ، واللهجة Mundart ، ولكن اتجه البحث النحوي إلى تصنيف اللغة تصنيفا ثنائيا هو اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة ، من أجل ذلك يمكن القول بأن السبب غير المباشر للبحث في اللغة المنطوقة في الستينات من هذا القرن يرجع إلى البحث النحوي [2].

المرحلة الثالثة: وهي المرحلة التي شهدت تحول طرق البحث اللغوي من المنهج التاريخي Diachronisch إلى المنهج الوصفي Syncnronisch بعد دوسوسير Desaassure وقد تبنته البنيوية الأمريكية فصار بحث اللغة المنطوقة من الأسس المهمة في البحث اللغوي بعامة .

هذا وقد رأى البنيويون أن الشكل المكتوب للغة ليس إلا تسجيلا ماديا لأصوات حية منطوقة ولعل خير شاهد على هذا قول بلومفيلد: « إن الشكل المكتوب ليس لغة ، ولكنه

---

(1) اللغة المكتوبة والمنطوقة (بحث في النظرية) ص15 .

(2) المصدر السابق .

طريقة تسجيل اللغة بواسطة إشارات ورموز مرئية »[1]. ونرى أن هذا وصف للخطاب اليومي في اللغات الأوربية ، ولا تنتظم في هذه الاتجاهات العامية العربية لأن اللغة العربية الفصحى ترتفع عن العامية الرديئة ، والذي يجب أن نرعاه ونعتني به من الخطاب المنطوق هو الخطاب المقروء لا غير ، وهو الذي يعتمد على عرف العربية الفصحى ، ويمثل جانبها الشفهي في العصر الحديث ، لأنه قراءة للنص العربي المدون الذي يخضع لقواعد اللغة وأساليبها المعهودة ، ولا ننساق وراء بحوث الغرب في لغتهم الدارجة العامية ، لأن لغتهم الكلاسيكية أصبحت بالية في خطابهم المعاصر ، وهذا شأنهم وشأن لغتهم ، ولا تنتظم في ذلك العربية .

ونحن نسعى إلى لسان عربي واحد يجمع أبناء العروبة والدين، واللهجات أول المفارق التي تجعلنا شيعًا لا جماعة لنا، وهذه اللهجات الرديئة لا تحظى بما تحظى به عربيتنا الجميلة من حسن اللفظ ورقته وغزارة معناه وجماله في السمع، وسبكه في التركيب مع غيره، ناهيك عما تثيره العامية في النفس من شعور بالمهانة والوضاعة والابتذال، وقد أبدلنا الله تعالى خيرًا منها لسانًا عربيًا مبينًا يعلو ولا يعلى عليه.

---

(1) المصدر نفسه ص16 .

openkandil.com

ثانيًا: اللغة المكتوبة

اللغة المكتوبة أو المدونة هي التي رمز إلى رمزها الصوتية المسموعة Phonatic Symbols برموز كتابية مقروءة ، تتأثر بنوع الخط الذي تكتب به وبأسلوب الكاتب ، وقواعد الكتابة ، وقواعد اللغة المكتوبة ، وهذا النوع يتميز بأنه أكثر رقيًا وانتقاء، وأكثر ثباتا ، وأطول عمرا ، لأنه يمكن الاحتفاظ بالمادة الكتابية مدونة فترة طويلة بيد أن الأصوات رهينة زمن الأداء ، ويصعب الاحتفاظ بها فترات طويلة ، لأنها متطورة وغير ثابتة وعرضة للنسيان والتحريف ، ولهذا عرفت اللغة المكتوبة بلغة النصوص الثابتة ، وارتبطت بالتراث القديم والنصوص المقدسة ، والآثار. وتأتي اللغة المكتوبة في المرحلة الثانية بعد نشأة اللغة ويعد هذا من المسلمات التاريخية فقد سبقت اللغة اختراع الكتابة بزمن بعيد [1].

وقد ذهب علماء اللغة قديما وبعض الأوربيين حديثا إلى أن اللغة المكتوبة أو مادة النصوص أهم من اللغة المنطوقة ، ويرجع سبب ذلك إلى أنهم اعتمدوا في تقعيد اللغة ، وتحليل مستوياتها على الشكل المكتوب ، باعتباره أساسا للقراءة والتكلم ، وباعتباره – على قول ماريانه لوشمان Mariane Loschman – تخزينا لنتائج عمليات الإرسال والاستقبال أو القول والتلقي » [2] وقد قام علماء العربية بتدوين لغات العرب ووصفوا مظاهرها ومعانيها بعد أن انتشر اللحن في اللغة بسبب تداخل الألسنة واختلاط اللغات بعد الإسلام ، واعتبرت مصنفاتهم اللغوية مصدرا لمن أتى بعدهم ، وتحولت مآثر العرب المنطوقة شفاهة في عصور الاحتجاج ، إلى لغة مكتوبة . في عصور التدوين ، فقد كانت المادة المسموعة للغة العربية أسبق من المكتوبة أو المقروءة . ونذكر هنا نسخ المصحف وتدوين السيرة النبوية والحديث الشريف والرسائل القضائية والديوانية، وشعر الجاهلية وصدر الإسلام فكل ذلك دون بعد أن كان محفوظا ، يروي ويسمع ، ويتلقاه الرواة مشافهة ، فقد

---

(1) ثورة الاتصال . نشأة أيدلوجية جديدة ، فيليب بروتون سيرج برو: ترجمة هالة عبد الرؤوف مراد . دار المستقبل العربي 1993م . ص15 .

(2) اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة ص13 ، 14 .

كانوا يذمون من يعتمد على الصحف في بدء التدوين ، ويرون أن روايته يقع فيها تصحيف ، ويسمونه مصحفي ، ولا تؤخذ رواية عن مصحفي أي من يعتمد على قراءة الصحف . حتى انتشر التدوين ، واعتمدوا على المكتوب ، فتركوا المشافهة واعتمدوا على النص المكتوب . وقد مرت الكتابة ماديا بمرحلة الكتابة الرمزية سواء أكانت تصويرية بحتة أو معبرة عن الأصوات [1]. وقد تناولنا ذلك في « الرموز الصوتية » .

ورأى دوسوسير وأتباعه والبنيويون من أمثال سابير Sapir وبلومفيلد Bloom Field ، وهوكت Hokett وجليسون Gleason أن الشكل المكتوب للغة ليس إلا تسجيلا ماديًا لأصوات حية منطوقة . شاهد ذلك قول بلومفيلد : إن الشكل المكتوب ليس لغة ، ولكنه طريقة تسجيل اللغة بالإشارات والرموز المرئية [2]. فالكتابة لا تمثل اللغة المنطوقة تمثيلا كاملا ، والكتابة التي نتحدث عنها هي الكتابة الأبجدية التي تربط فيها الوحدة الخطية Grapheme بوحدة صوتية أو فونيم على اعتبار أنها التعبير الرمزي لها [3]. و« الكتابة إشارات تصويرية أو خطية تتصل بإشارات صوتية « لغوية » [4]. فقد وضع الرمز الكتابي بإزاء صوت لغوي يرمز إلي الخط ، ولا علاقة معنوية بين الرمز الصوتي ورمزه الكتابي ، فالصوت مجرد من المعنى ، وكذلك الحرف المكتوب لا معنى له إلا ما اصطلحنا عليه أنه يرمز إلى صوت معين في اللغة .

---

(1) ثورة الاتصال ص16 . ويرجع تاريخ نشأة الكتابة الرمزية في بلاد ما بين النهرين قبل ميلاد المسيح بأربعة آلاف عام تقريبا ، وكانت في بدايتها تصويرية بحتة أي تستخدم رسما تصويرا للتعبير عن شيء أو شخص معين كأن ترسم شجرة للتعبير عن الشجرة ... ثم تطورت في عام 300 تقريبا قبل الميلاد ، فأصبحت الرسوم أكثر تجريدية ، ولا توجد علاقة تصويرية مباشرة بين الكلمة والرسوم المعبرة عنها ، مثل اللغة الهيروغليفية. ثم تطورت الكتابة ، وبدأت الكتابة في تطورها تنفصل تدريجيا عن الصورة ، وعن التعبير التماثلي عن الأشياء ، وأسفر هذا الوجه من تجريد الكتابة عن اختراع الحروف الأبجدية ، التي حققت انفصالا عن الصورة ، حيث أصبحت تعتمد على مجموعة صغيرة من الرموز المجردة الشفرية تمثل الأصوات المنطوقة . ثورة الاتصال ص 16 ، 17 ومعرفة اللغة، يول ص22 .

(2) اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة: ص 16 .

(3) العربية والغموض دراسة في دلالة المبنى على المعنى، الدكتور حلمي خليل ص175 .

(4) مدخل إلى الألسنة . بول فابر ، كريستيان بايلون . المركز الثقافي العربي. بيروت ط1/ 1992م ص75 .

ويرى جودي Goody أن التفكير التحليلي analytic Thinking يحصل لدى الفرد عند كتابة اللغة المكتوبة ، ذلك أنها تدوين للكلام ، ويمكن الإنسان من امتلاك الكلمات المفردة ومعالجة نظامها وتطوير صور التفكير المنطقي . ويحدد جودي للغة المكتوبة وظيفتين أساسيتين: (إحداهما): وظيفة التخزين the storiage function التي تتجاوز بعملية التوصيل الزمان والمكان . (والأخرى): هي نقل اللغة من المجال السمعي إلى المجال البصري ، والسماح بسبر أغوار الكلمات ، والجمل في سياقتها الأصلية Original contexts[1].

ويدلنا تاريخ الكتابة على أنها قد أحيطت بأجواء سحرية ، حتى إنها بعد أن تجردت من كل صفة سحرية ، ظلت محاطة بهالة من الرهبة والاحترام ، ذلك أن الناس قد احتفظوا بها للنص المكتوب من خرافة . ومازلنا نكرر « هذا مكتوب » أو « قد كان ذلك مكتوبًا ، كما أننا نتصور المقدور مسجلا في كتاب كبير تطوي منه في كل يوم صفحة . وتعد الرموز المكتوبة في حد ذاتها صلة مهمة في العلاقة التاريخية بين اللغة والثقافة والبناء الاجتماعي ، فقد تخلصت الكتابة من الأساطير التي ارتبطت بها في العالم القديم ، وشاركت في جميع نواحي الحياة الحديثة اقتصاديًا وسياسيًا وإعلاميًا[2].

ويتجلى الشكل الكتابي في الذهن لعدة أسباب يذكرها دي سوسير ، **أولاً**- الشكل الكتابي الذي طبع في أذهاننا ، وكأنه شيء مستمر وثابت وكأنه أكثر ملاءمة من الأصوات المحافظة على وحدة اللغة عبر الزمن ، وهكذا فقد ابتكرت وحدة زائفة تماما ، أن الرابط الخارجي للكتابة تعد ملاحظته أو الإمساك به أكثر سهولة من الرابط الحقيقي (الرابط الصوتي) . **ثانيا**- يعطي بغالبية الناس انتباها كبيرا للانطباعات المرئية ببساطة ، لأنها أكثر ثباتا ، ووضوحا من الانطباعات السمعية ، ولهذا فهم يفضلون الصورة الكتابية التي تعمل على فرض نفسها عليهم على حساب الصوت. **ثالثا**: يحسم الأمر لصالح الكتابة عندما لا يكون هناك توافق بين اللغة – والإملاء ، فإن استمرار الخلاف يكون صعبا على كل شخص

---

(1) اللغة المكتوبة ، واللغة المنطوقة ص27 .

(2) المصدر السابق ص28 .

باستثناء اللغوي ، وإذا لم يقدم حلا للمشكلة ، فإن الشكل الكتابي هو الذي يفوز حتما ، لأن أي حل مدعوم بها يكون سهلا ، ولهذا فالكتابة تحمل أهمية لا تستحقها » [1]. ويرجع اهتمام العلماء بالنص المكتوب قديما إلى أنه ثابت ويحافظ على مضمونه اللغوي وثقله ويمكن نقله عبر مسافات بعيدة على عكس اللغة المنطوقة [2].

ولم يعد الاحتفاظ بالمنطوق ونقله إشكالاً في عصرنا ، لأن التسجيلات والأشرطة ، وغير ذلك من أشكال الأحاديث المحفوظة تحقق للغة المنطوقة ميزة الاستمرار والانتقال إلى أماكن بعيدة في العصر الحالي ، ويمكن الحفاظ على مادتها الصوتية كاملة مسجلة على شرائط ويغني ذلك عن كتابتها في العصر الحالي ، والتسجيل الصوتي يحتفظ بالمنطوق وعناصره الصوتية، بينما الكتابة تعجز عن الحفاظ عليه كاملاً.

وقد دافع الدكتور تمام حسان عن اللغة المنطوقة مستشهدا بالتقدم الفني في مجال البحث اللغوي بقوله: « إذا كان للكتابة على النطق ميزة الدوام وإمكان الاستحضار مرة أخرى وإعادة التجربة ، وتخطي حدود الزمان والمكان ، فإن النطق له عليها ميزة الحياة والحركة ، وربما أصبحت له قدرة مشاركتها عنصر الدوام وإمكان الاستحضار مرة أخرى ، وإعادة التجربة وتخطي حدود الزمان والمكان بعد اختراع أشرطة التسجيل أو الإذاعة ، والتليفزيون ، وفي كل هذه المخترعات يحفظ النص بدلالته النغمية وبالموقف الاجتماعي ، ويزيد التليفزيون عليها الاحتفاظ بتعبيرات ملامح الوجه وحركات أجزاء الجسم كالرأس واليدين مما يجعل الموقف أقرب إلى الحياة » [3] ، ولكن هذا لا يطرد في كل الخطابات المنطوقة ، التي لا تتاح لها هذه المجالات .

وقد أشار الدكتور حلمي خليل إلى أوجه الاختلاف بين اللغة المكتوبة والمنطوقة ، يقول: « منذ أن أصبحت الدراسة اللغوية دراسة علمية موضوعية قائمة على دراسة اللغة

---

(1) دي سوسير: فصول في علم اللغة العام ص 56 .

(2) اللغة المكتوبة والمنطوقة ص30 .

(3) اللغة العربية معناها ومبناها . الدكتور تمام حسان: ص277 وهذا لا يعني أنه يدعو إلى العامية بل يعني مستوى الأداء المنطوق الذي يحتفظ بجميع العناصر الصوتية .

المنطوقة Spokenlanguage وجد علماء اللغة أن هناك فروقا بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة written تتمثل في أشياء تفتقر إليها اللغة المكتوبة ، وتعين السامع على إدارك المعاني ، وفهم الدلالة مثل: النبر Stress ، والتنغيم Intanation ودرجة علو الصوت Laudness وسرعة الكلام Speech [1]. وهي العناصر المنطوقة التي تختفي من النص المكتوب لعدم وجود رموز كتابية ترمز إليها .

الكتابة والنص

للنص مفاهيم عديدة ، أشهرها: ما عين من قول ، أو هو القول الثابت الذي ينص به في الاحتجاج ، فمفهوم النص يدور في معنى كلام معين منصوص عليه بلفظ أو كتابه أو محفوظا يعرف بثباته وعراقته ، وهو في المشهور: صيغة الكلام الثابتة المنسوبة لصاحبها دون تغيير ، فالقرآن الكريم والحديث الشريف ومأثور كلام العرب شعرا ونثرا كان محفوظا في الصدور ثم دوّن .

وقد ارتبط النص المحفوظ الثابت بالكتابة ؛ لأنها الوسيلة الوحيدة قديما لحفظه من النسيان أو التحريف ، فقد اتخذ الناس الكتابة لتدوين ما يحفظون من نصوص مقدسة ، وقد ظهرت الكتابة قديما في كنف المعابد ورجال الدين ، لأنهم بحثوا عن وسيلة لحفظ النصوص المقدسة التي كانوا يتوارثونها جيلا بعد جيل ، ثم استخدمت في مجالات أخرى .

ويمر النص بمراحل ، المرحلة الأولى الفكرة أو الإلهام ، وهي المرحلة التي تطرح فيها فكرة النص في الذهن ، ثم مرحلة الإنتاج ، ويعبر المبدع عنها قولا أو كتابة ، وهو ما يعرف بقناة الاتصال التي يعبر منها النص من الكاتب أو المبدع إلى المتلقي ، وينتهي دور المبدع عند ذلك ، لتبدأ مرحلة الفهم والتأويل أو التفسير ، وهي مرحلة تخضع لميول المتلقي وثقافته ، فيأوّل النص في ضوء ما لديه من انطباعات شخصية ويظل المعنى أو مقصد المبدع معزولا في المفردات المنطوقة أو المكتوبة ، ويظل مراده الأصلي مجهولا ويحتمل وجوها من التأويل ، ولكننا لا نرى أن مهمة المبدع انتهت بعد أن كتب النص الذي يعد جزءا منه ويمثل أفكاره

---

(1) العربية والغموض ص175 .

واتجاهاته وقدراته الإبداعية ، فالنص – تجاوزا – هو المؤلف ، ويمكننا فهم النص من خلال ما نعرفه عن المؤلف .

وقد كان النص قديما هو المحفوظ في صدور الناس ، والذي يتبارون في حفظه ، أو هو المنطوق الذي يدل على قدرتهم الإبداعية ، وقد ساعدت مرحلة الشفوية في النص على سمو الجانب البلاغي ، وارتقاء الألفاظ والأساليب ، وهي الأدوات التي استعان بها المبدعون في كتابتهم ، والتي تعد من ثمار الخطاب الشفهي .

وهذا المفهوم الكتابي للنص جاء حديثا بعد أن انتهت مرحلة الشفهية أو عصور الشفهية التي نشأت فيها الآداب القديمة ، فدونت تلك الآداب ، وقُرأَت مكتوبةً بعد أن كان القراء يستمتعون بها مسموعة ، وقد ظلت كذلك تقرأ حينا – في المنتديات حتى بعد أن دونت ، فالكاتب يكتب نصًا ثم يقرأه على الحاضرين ، وقد أخذت الكتابة مكانتها حتى في الآداب الشعبية التي أصبحت هي الأخرى مكتوبة ، بعد أن توافر عليها جمع من المهمتين بها ، فشرعوا في كتابتها أو تسجليها صوتيا خشية أن تذوب وتضيع ، مثلما شرع رواة الشعر الجاهلي ونوادر اللغة في تسجيل ما في حافظتهم من آثار أدبية . ففقد الفن الشعبي ووظيفته الاجتماعية في الخيال الشعبي ، وفقد كذلك أهم عناصره الصوتية ، فقد عجزت الكتابة عن تصوير الأدب الشعبي كما هو مروي ، ليصبح الأدب الشعبي هو الآخر نصا بالمفهوم الحديث. وما زال الباحثون يبحثون علاقة النص بالكتابة .

يرى رولان بارت أن النص: « نسيج الكلمات المنظومة في التأليف والمنسقة بحيث تفرض شكلا ثابتا ووحيدا ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ... والنص الذي يوجد الضمان للشيء المكتوب »[1]. وهذا التعريف يعتد بالناحية الشكلية للنص من حيث تكوينه ، كما أنه يضمن حفظ الشيء المكتوب وبقاءه دون أن يضيع في قافلة النسيان ، فالنص المكتوب

---

(1) نظرية النص رولان بارت ترجمة محمد خير البقاعي . بيروت مجلة العرب والفكر العالمي عدد 1988م ص89 .

وعاء اللغة والغلاف الذي يحفظ الكلام من عوامل الزمن والنسيان [1].

وقد أولى ريكور الكتابة اهتمامه ، فأسس نظرية للحدث الكتابي تميزه عن الحدث الكلامي ، وقد اندفع متحمسا إلى العناية بالنص المكتوب ، ومن المنطلق يعرف النص بأنه: «كل خطاب تم تثبيته بواسطة الكتابة» «ولكن ما هو هذا الشيء الذي يتم تثبيته بواسطة » ؟ « إن ما تثبته الكتابة هو خطاب كان بإمكاننا قوله ، إلا أننا – مع ذلك – وبالتدقيق نكتبه لأننا لا نقوله ، وإن هذا التثبيت الذي تمارسه الكتابة يحدث ليحل محل الكلام ذاته ، أي أنه يحدث في اللحظة التي كان بإمكان الكلام أن يحدث » . ولذلك فإن النص لا تحصر مهمته في تسجيل كلام سابق عليه ، بل قيمته في أن يسجل حرفيا مباشرة بواسطة الكتابة ما يريد الخطاب قوله . هذه الاستقلالية المميزة التي تجعلها تأخذ مكان الكلام ، هي التي تطابق ولادة النص » [2]. ويتجلى في هذا التعريف عدة ملاحظات ، وهي:

- يجمع ريكور بين مفهومي النص والخطاب . وهذه مسألة خلافية بين الباحثين .
- لا يكون النص نصا إلا بعد كتابته أي تثبيته حرفيا ، وعلى هذا الرأي تستبعد النصوص الإبداعية الشفوية ، كالشعر الجاهلي والخطب والأمثال والحكم ... [3].

وينحو «فاولر» نحو بول ريكور أو قريبا منه ، فيؤكد «أن النص معناه البنية السطحية الأكثر إدراكا ومعاينة. وإذا كانت البنية السطحية عند اللساني هي متوالية الجمل ، في تطورها ، وتتابعها ، فإن تيار الجمل يؤدي إلى تحديد سرعة وإيقاع القراءة ، كذلك كانت العلاقة بين التركيب والإخبار هي المحور المركزي في بنية النص » . ويدخل فاولر الجوانب الفيزيقية مثل الخط ، وتقسيم الفقرات ، والفصول والصفحات ، ضمن مكونات

---

(1) ارجع إلى: مقالات في الأسلوبية د/ منذر عياش . منشورات اتحاد الكتاب العربي . دمشق 1990م ص206 .

(2) النص والتأويل، بول ريكور، ترجمة منصف عبد الحق ، مجلة العرب والفكر العالمي عدد 3/ 1988م ص37 ،38 ، والكتابة ومفهوم النص د/ عبد الملك مرتاض ص12 .

(3) الكتابة ومفهوم النص . عبد الملك مرتاض ص 12

النص»[1]. إن اللغة المكتوبة لغة عامة أو مشتركة ، هي الوسيط في الأحداث التبليغية بين جميع أولئك الذين يتكلمونها . وهي تمثل دائما تقاليد وقواعد محافظة[2].

وقد عكف كثير من الباحثين على الاهتمام بالشكل الكتابي أو الخطاب المكتوب ، « عن طريق هذا الشكل الكتابي ، ويختلف النص عن الكلام ، وذلك باعتبار أن الكتابة كمؤسسة لاحقة بالكلام ، استعملت لتثبت بواسطة الخطية الكتابية كل ما قاله الخطاب شفويا . وترتبط الكتابة بذلك بعملية القراءة ، وتجعل النص مختلفا عن الكلام الذي نجد فيه العلاقة بين المتكلم والمستمع المباشر في مقام وذات وإحالة مشتركة . إن الكتاب يصبح موجودا من خلال النص ، بما أنه مسجل بواسطة الكتابة ، ويصبح الشرح والتأويل من إنتاج القراءة[3].

يقول (يوري لوتمان): « فإن الشكل الكتابي يتجلى لاعتباره مجرد وسيلة اصطناعية لتسجيل النص ، بوصفه إشارة إلى الطبيعة البنائية ، ويقوم الوعي البشري بمقتضاها بوضع النص المقترح عليه داخل بنية معينة من العلاقات »[4]. على أن الثقة في النصوص المكتوبة يجب أن تقرر دائما في حذر[5].

وقد أفادت الدراسات اللسانية من البحوث السابقة واهتمت بدراسة الخطاب ، واستفاد منها محللو الخطاب ، فهذه الدراسات اللسانية الحديثة تدعو إلى ضرورة بحث الخطاب من الناحية الاتصالية ، وليس من ناحية الكتابة أو النطق ، فالمهم هو أن تصل الرسالة إلى المتلقى ، وتؤدي وظيفتها « وهذا يعني أنه ينبغي علينا أن ندرس استراتيجيات الخطاب العربي سواء أكانت استراتيجيات متعلقة باللغة المنطوقة أم استراتيجيات متعلقة

---

(1) تحليل الخطاب الروائي والزمن، السرد، والتبئير، سعيد يقطين ص43 .

(2) اللغة المكتوبة والمنطوقة ص50 .

(3) انفتاح النص الروائي ، النص . السياق الدكتور سعيد يقطين ص27 ، 28 .

(4) تحليل الخطاب الشعري ، بنية القصيدة . يوري لوتمان ترجمة دكتور محمد فتوح – دار المعارف مصر 1995م ص52 .

(5) دراسات لسانية تطبيقية الدكتور مازن الوعر ، طبعة دار طلاس ، دمشق . ص101 .

باللغة المكتوبة ، (التراث الشفوي أو التراث المكتوب) ، وذلك لمعرفة العوامل التي تكون كل خطاب لغوي يمكن توصيله » .

وتتميز اللغة المكتوبة عن اللغة المنطوقة بعدد من الخصائص ، وهي:

- أنها محافظة على الاستعمالات القديمة ، ولا يطرأ عليها تغيير أو تطوير سوي في الخط الذي تكتب به ، ولهذا فالنصوص المكتوبة عل جدران المعابد ، تعد أصدق تمثيل للغة العصر الذي كتبت فيه ، وكذلك نصوص الكتب المقدسة المدونة التي لم تعبث بها يد الزمن .
- أنها أكثر موافقة لقواعدها واتباعا لها ، لأن الكاتب عندما يكتب يلتزم بقواعد لغته وأصولها المتبعة ، فالكاتب يحرص على أحكام لغته ، ويضبط مفرداتها حتى يمكن المتلقي من فهمها فلا تضطرب عليه .
- أن الكاتب يضمِّن النص المكتوب كل شيء يستوفي معناه ، فلا يترك للقارئ في نصه مرجعا خارجيا أي خارج النص ، ولهذا يكتب تفاصيل كل شيء ويشير إلى كل شي في النص ويسهب في التفاصيل حرصا على الإفهام . فالكاتب يعوض النص المكتوب ما فقده في الأداء الصوتي من عناصر صوتية تشارك في الدلالة ، مثل النبر والتنغيم وطبقة الصوت والوقفات ، وكذلك يعوضه كتابة ما فقده من إحالات إلى العالم الخارجي وما تساهم به الحركات الجسمية في الدلالة .
- أن النص العربي المكتوب يحتمل وجهًا أو وجهين أو ثلاثة من القراءة، وقد لا يسع إلا قراءة واحدة، ويرى بعض الباحثين أن اللغة المكتوبة لا تحمل كم الاختلاف الكبير الذي يقع في اللغة المنطوقة ، فالمكتوب من اللغة يحمل الصيغة العامة تقريبا ، ولا يستغرق الفروق التي تقع في اللهجات ، وإن كان النص المكتوب يحتمل وجوها متعددة من القراءات ، بيد أن اللغة المكتوبة ثابتة بطبيعتها وتحتفظ بنصها الأصلي [1] .

---

(1) ارجع إلى: علم اللسان ، أنطوان ماييه ، ترجمة الدكتور محمد مندور ، دار العلم ، لبنان 1946 ص86 .

العلاقة بين المكتوب والمنطوق

العلاقة بين اللفظ المنطوق والكتابة علاقة وضعية اصطلاحية اتفق عليها المجتمع، فقد تواضع أهل كل لغة على رموز كتابية ترمز إلى أصوات لغتهم ولا توجد علاقة نسب بين الحرف والصوت، والصوت نفسه لا يدل على معنى ، والأصوات التي تؤلف لفظًا ترمز إلى معنى اصطلح عليه الناس . وهما يختلفان باختلاف اللغات.

الكلام المنطوق عبارة عن موجات صوتية تصل إلى الأذن يتعارف عليها أبناء مجتمع واحد أو عدة مجتمعات ذات أصل واحد ، ولغة مشتركة. والكتابة رموز مرئية للأصوات اللغوية المسموعة ، ترتبط فيها الوحدة الخطية Grapheme بوحدة صوتية أو فونيم Phoneme على اعتبار أنها التعبير الرمزي لها [1].

إن العلامة اللغوية ممتدة في الزمن نطقا وفي المكان كتابة ، فهي تشغل حيزا من المكان وبرهة من الزمان ، فإذا نطق الفرد بكلمة ما فإنها تستمر بضع ثوان ، وإذا كتبها فإنها تحتل مكانا معينا على الورق ، وإن الباحث في علم اللغة ، ليجد أن كل اللغات العالمية ، لغات ذات طبيعة صوتية ، وإن معظم الاختلافات التي تظهر في نطق الأصوات لدى أهل اللغة لا تظهر في الكتابة [2]. فاختلاف النطق والعناصر الصوتية تختفي في الخط .

وقد صرح علماء اللغة بعجز النظام الكتابي عن تصوير النظام الصوتي لهذه اللغة ، خاصة اللغة المنطوقة ، ويعلل الدكتور حلمي خليل ذلك بقوله إن « الكتابة بطبيعتها من حيث هي رموز مرئية للأصوات عاجزة عن تصوير كافة الخصائص الصوتية في اللغة ؛ لأنها تسقط من حسابها عوامل كثيرة تظل وقفا على اللغة المنطوقة مثل عامل السرعة والزمن والبعد واختلاف النطق حسب اللهجات الإقليمية ، وكل ذلك يؤدي إلى أن نطق أي صوت لغوي عمل فردي من فرد إلى فرد ، وفي الوقت نفسه يرون أن هناك تنوعات مختلفة لنطق الفونيم الواحد فيما يسمى بألفون Allophone وهو يمثل الاختلاف أو التنوع في نطاق

---

(1) العربية والغموض . دراسة لغوية في دلالة المبنى على المعنى ، الدكتور حلمي خليل ، ط 1988 ، دار المعرفة الجامعية ص135 .

(2) علم النفس اللغوي . الدكتورة نوال محمد عطية المكتبة الأكاديمية ط3 ، 19995 ، ص26 .

صوت واحد من فرد إلى فرد ، وعندما يتحول الصوت اللغوي إلى حرف مكتوب تختفي هذه الاختلافات وغيرها مما يصاحب الكلام. وقد اكتشف علماء اللغة المحدثون هذه الفروق ، فلجئوا إلى التسجيل الصوتي ليحتفظوا بمادة الكلام واستعانوا في ذلك بالأجهزة الحديثة في تسجيل الكلام وتحليله وابتكروا نظامًا جديدًا للكتابة يضع رموزًا كتابية لكافة العناصر الصوتية المنطوقة في الكلام . وهو النظام المعروف باسم الكتابة الصوتية Phonetical Alphabet [1].

ويرى فندريس أن النص المكتوب لايعد تمثيلا دقيقا للكلام ، فلسنا – على عكس ما يتصور كثير من الناس – نكتب كما نتكلم ، بل إننا نكتب أو نحاول أن نكتب كما يكتب غيرنا . وإن أقل الناس ثقافة يشعرون ، بمجرد وضع أيديهم على القلم ، بأنهم يستعملون لغة خاصة غير اللغة المتكلمة (= المنطوقة) ، لها قواعدها ، واستعمالاتها كما أن لها ميدانها وأهميتها الخاصين بها » [2].

ويشرح فيرث Firth هذه القضية مرة أخرى بقوله: « إن كثيرا من الناس عندنا يظنون أن كلامهم سوف يكون أفضل إذا تكلموا على نحو ما يكتبون ، أو على نحو ما تقضي الإنجليزية المعيارية Standard English المستخدمة في الكتب ، وكثير من الناس يقول كذلك بقانون مخالف: « أكتب كما نتكلم » ومن الواضح أن المرء يكتب بالطبع كما يتكلم . وغالبا ما يرتبط هذان الشكلان من السلوك اللغوي أحدهما بالآخر ، لاسيما إذا استخدما للتعبير عن أغراض متشابهة . ولكن ثمة أشياء تقال أفضل مما نكتب ، كما أن ثمة أشياء أخرى يكون من الأسهل كتابتها ، ولا يمكن لها أن تشكل جانبا من المحادثة ، وإن أمكن قولها في جماعة لغوية ذكية فحسب » [3]. والحقيقة أننا لا نستطيع أن نكتب كما نتكلم ، أو نكتب كل ما نتكلمه ؛ لأن مستوى الأداء الصوتي يختلف عن نظام الكتابة .

وقد كلف القدماء والمحدثون بالشكل المكتوب ، وأعطوه أهمية أكبر من المنطوق ، وقد

---

(1) ارجع إلى العربية والغموض ص175 .

(2) محمد العبد (دكتور): اللغة المكتوبة والمنطوقة ص29 .

(3) نفسه .

طوعوا نطقهم للشكل المكتوب ، وحاولوا الاقتراب منه ، فالعديد من الناس يعتقدون أنه لكي تتكلم بدقة يجب أن تحاول الاقتراب من الشكل المألوف للاستخدام الكتابي » [1] . ولو سألت الرجل العادي عن صلة القربي بين الكلام والكتابة يخبرك بأن الكلام ترجمة أو تحول رديء ومبتذل للنص المكتوب .

ويقول دي سوسير إن موضوع اللغة ليس الصيغ الكلامية والكتابية للكلمات أو إن الصيغ المتكلمة وحدها تشكل الموضوع ، ولكن الكلمة المتكلمة مقيدة بشكل أساس بصورتها الكتابية حتى إن الصورة الكتابية تسعى لاغتصاب الدور الرئيسي ، فالناس يهتمون بالمكتوب ، ويعتنون به أكثر من عنايتهم بالأصوات المنطوقة [2] . ونخالف رأي من يرى أن اللغة الصوتية ، سابقة على كل أنواع الرمزية ، ومتقدمة عليها من ناحية الأهمية والاستعمال بما في ذلك الإشارات التي تصاحب الكلام [3] ؛ لأن المجتمع الإنساني يقدس الكتابة ويحتفي بها ، لأنها تمثل لغة المجتمع العليا .

ويتساوق نظام الكتابة طرديا مع درجة محاكاة اللغة المنطوقة ، كلما زادت المحاكاة كان النجاح أوقع ، وكلما تناقص قلت نسبة النجاح ، يقول دي سوسير: « اللغة والكتابة نظامان متميزان في العلاقات ، ووجود الثاني من أجل غرض واحد هو تمثيل الأول ، ووجود الكتابة من أجل تمثيل اللغة » [4] .

وقد فرق قدماء العرب – في وقت مبكر – بين الكتابة كرموز والأصوات المنطوقة التي تعبر عنها ، فقد أشار حمزة الأصفهاني إلى أن الفيلسوف العربي – الكندي (ت 260هـ) هو أول من تنبه للاختلاف بين النطق والكتابة في اللغات المختلفة ، فقد وضع لنفسه ألف باء

---

(1) لغة الحوار عند المازني ومحمد عفيفي ، دراسة لغوية أسلوبية – مصطفى بكري شحاتة ، كلية الألسن– عين شمس 1990 قسم اللغة العربية 1990م ص30 .

(2) فصول في علم اللغة العام ، دوسوسير ، ترجمة أحمد نعيم كراعين ، دار المعرفة الجامعية 1985م ، ص53 .

(3) اللغة بين المعيارية والوصفية ، تمام حسان ، دار الثقافة ، الدار البيضاء 1980م ص115 .

(4) فصول في علم اللغة العام ص53 .

صوتية خاصة به ، يقول الأصفهاني: « إنه لمّا احتاج إلى استعمال لغات الأمم من الفرس والسريان والروم واليونان وضع لنفسه كتابة لها أربعين صورة مختلفة الأشكال متباينة الهيئات ، فكان لا يتعذر عليه كتابة شيء ولا تلاوته » [1].

وقد اتهمت اللغة المنطوقة بأنها ذات جوانب سلبية عديدة منها أنها سريعة التغير عندما لا توجد صورة مرئية أو مكتوبة فاللغة المكتوبة تأخذ بجماع اللغة المنطوقة وتحد من سرعتها تغيرها ، « فاللغة لها تقاليد شفوية ثابتة ومحددة ومستقلة عن الكتابة ، ولكن تأثير الصيغة المكتوبة تحجب رؤيتنا هذه » [2].

ويدفع الدكتور تمام حسان الاتهام عن اللغة المنطوقة مستشهدا بالتقدم التقني في مجال البحث اللغوي: « إذا كان للكتابة على النطق ميزة الدوام وإمكان الاستحضار مرة أخرى وإعادة التجربة وتخطي حدود الزمان والمكان ، فإن النطق له عليها ميزة الحياة والحركة والموقف الاجتماعي ، وربما أصبحت له قدرة مشاركتها عنصر الدوام ، وإمكان الاستحضار مرة أخرى وإعادة التجربة ، وتخطي حدود الزمان والمكان بعد اختراع يحفظ النص بدلالة النغمة أو الموقف الاجتماعي ، ويزيد التليفزيون عليها الاحتفاظ بتغيرات ملامح الوجه وحركات أجزاء الجسم ، الرأس واليدين مما يجعل الموقف أقرب شي إلى الحياة » [3].

ويولي بالي charl bally اهتمامه باللغة المنطوقة وخاصة في مواقف الحوار في تمييز طريف يقيمه بين اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة يقول: « اللغة المكتوبة ، إنما هي دائما مظهر لحالات الذهن وأشكال التفكير التي لا تجد عادة تعبيرا عنها في اللغة العادية وسياق اللغة

---

(1) التنبيه على حدوث التصحيف الأصفهاني: أبو عبد الله بن الحسين ، تحقيق محمد أسعد طلس . مطبوعات مجمع اللغة العربية . دمشق 1388هـ 1968 .

(2) فصول في علم اللغة العام ص54 .

(3) العربية معناها ومبناها، تمام حسان، دار الثقافة والدار البيضاء (د .ت) . ص277 ، والدكتور تمام لا يدعوا إلى العامية وهجر الفصحى بل يدعو إلى الارتقاء بالخطاب المنطوق ورفع مستواه اللغوي ليصل إلى درجة الفصحى ، لأن الخطاب المنطوق أكثر انتشارا ، وأسرع فهمًا ، لأنه لا يستغرق الأساليب المعقدة والألفاظ الغريبة .

المكتوبة يختلف عن موقف الكلام ، فاللغة المكتوبة محرومة من النبر المعبر وحركات الوجه واليد التمثيلية ، بالإضافة إلى أن الحوار يتضمن الموقف دائما بشكل طبيعي ، بينما يجتهد الكاتب في خلق هذا الموقف في الكتابة فيستوفي الناس كل ما يعبر عن العالم الخارجي، وتبقى القاعدة الأصلية للبحث اللغوي عند بالي في المعايشة الخلاقة للكلام » [1].

وقد حظيت اللغة المنطوقة الانفعالية أو العاطفية – كما يسميها بالي – بالنصيب الأوفر من الدراسات اللغوية ، فإنها قد حظيت أيضا بالنصيب الأكبر من الدراسات الأسلوبية التي تقوم على هذه الدراسات اللغوية بل قصر «بالي» دراسة الأسلوب على الخطاب المنطوق ، فقد رأي أن الكلام العامي الجاري على الألسنة أجدى بدراسة اللغوي من التعبيرات الأدبية المنتقاة » [2]. فهذا شان اللغات الأخرى ، ولكن العامية في العربية تعد آفتها وخطرًا عليها .

وقد اهتمت الأسلوبية باللغة المنطوقة كما يقول فاليري: « إن الأدب لا يمكن أن يكون شيئا آخر سوى ضرب من التوسع والتطبيق لبعض اختصاصات الكلام ، فالذي يسمح لنا بالتصريح بوجود هذا الرباط الفاعل هو أن العمل الأدبي في وضعه كعمل فني شعبي حث الباحثين على الحديث عن الدور الأكبر للكلام في الأدب ، بل إن مادة بأكملها (مادة دراسية) ، وهي الأسلوبية Lastylistique ، قد ولدت إلى جانب الدراسات الأدبية واللسانية ، وتعرف اليوم عدة دراسات وإطروحات كتبت عن لغة هذا الكاتب أو ذاك أن الكلام يأخذ تعريفه هنا بوصفه مادة الشاعر أو العمل الأدبي » [3]. يقول المسدي: « إن الإنسان في جوهره كائن عاطفي قبل كل شيء ، فاللغة الكاشفة عن جوهره هي لغة التخاطب بتعبيراتها المألوفة » [4].

---

(1) النشأة الأولى لعلم الأسلوب، الدكتور صلاح فضل ، الإعلام العراقية عدد 7 تموز 1984م ص28 .

(2) الاتجاه الأسلوبي في النقد الأدبي شفيع السيد: دار الفكر العربي د .ت ص94 .

(3) في أصول الخطاب النقدي الجديد ، تزفيان تودروف، ترجمة أحمد المديني ، بغداد ط1/ 1987م: مقال (علاقة الكلام بالأدب) .

(4) النقد والحداثة ، عبد السلام المسدي ، دار الطليعة ، بيروت 1983م ط1 الأولى . ص44 .

والعمل الأسلوبي يقوم على تتبع الشحن العاطفي في الكلام أولا ، فإذا عاينا وسائل التعبير الحاملة للشحنات الوجدانية انتقلنا إلى دراسة خصائص الأداء ، وحقل البحث الأسلوبي يتحد بظواهر تعبير الكلام ، وفعل ظواهر الكلام على الحاسية ، وعلم الأسلوب يأخذ من اللغة وسائل تعبيرية ، تبرز المفارقات العاطفية والإرادية والجمالية بل الاجتماعية والفنية، وتتكشف أولا في اللغة الشائعة والتلقائية التي تبرز في العمل الفني [1].

وقد وجه بالي علم الأسلوب إلى دراسة الخطاب المنطوق ، فعلم الأسلوب هو « العلم الذي يقتصر على دراسة وقائع التعبيرية التي تترجم في فترة معينة من حركات فكر وشعور المتحدثين باللغة ودراسة التأثيرات العضوية الناجمة عن هذه الأنماط لدى السامعين والقراء »[2].

وقد كان للمدرسة البنيوية صدى في أوساط الدراسات العربية ودارسيها ، فقد قامت دراسات لغوية على اللهجات المحلية للقرى والمراكز والمحافظات والمدن ، وسجلت مظاهر هذه اللهجات وطبقت النظريات الحديثة عليها [3]. وتأثر الباحثون بالمناهج الغربية ، بعد أن كان العرب قديما وحديثا لا يلتفتون إلى اللهجات أو الخطاب المنطوق ، وينظرون إليهما نظرة إزدراء وتسفيه ، وأنهما لا يستحقان أهمية البحث ، ويرون في دراستها غضاضة وسفاهة ، فكان الخطاب المكتوب هو الأساس ؛ لأنه يعتمد على اللغة الصحيحة ، وينأى عن الشاذ والرديء ، وعد الإغراب والتوعر في اللغة تمكنًا منها ولسنا ، فتباروا في حفظ نوادر اللغة وغريبها.

وقد تنبه بعض علماء اللغة المحدثين إلى أهمية الخطاب المنطوق ، وأولوه اهتمامهم ؛ لأنه في الحقيقة هو المؤثر اجتماعيا ، وصاحب الدور الفعال ، ويحظى بمساحة عريضة من الانتشار والاستخدام اليومي في كافة أنشطة المجتمع اليومية ، فالناس في حياتهم العادية لا يحتاجون إلى كتابة أو تمحيص في الأداء الكلامي بل ينطلقون في تلقائية محاكين الحدث مباشرة

---

(1) النقد والحداثة ص 46 .

(2) النشأة الأولى لعلم الأسلوب ص22 .

(3) اللغة المكتوبة والمنطوقة ص23 .

دون إعداد أو تكلف ، ولا يلتفتون إلى تسجيل كلامهم إلا في المواقف الرسمية التي تستدعي الإعداد والتنقيح .

فالمجتمع العادي لا يمتلك ناصية اللغة الفصحى ، ليتواصل بها بل تكاد تنعدم الأساليب الرصينة في المجتمعات العربية التي تسودها الأمية والفقر اللغوي ، اللهم إلا بعض المناطق النائية والمعزولة داخل الصحاري والتي احتفظت بنصيب من بعض مظاهر اللغة العربية الصحيحة التي تتخلل بعض أحاديثهم اليومية والتي توجه إليها بعض الباحثين حديثًا ليكشفوا اللثام عن لسان تلك المناطق قبل أن يصيبه العطب أو يتسرب إليه اللحن المتفشي في المجتمعات المتمدينة والممسكة بتلابيب كلمات أجنبية في ثنايات أحاديثها اليومية ، وهؤلاء لا يملكون نصيب القدماء من اللغة، لكنه أقرب وأفضل ممن يعجزون عن أداء عبارات صحيحة مكتوبة ومشكولة ، فأصبحت لغتهم مبتذلة تخالف عربيتنا الصحيحة .

والمجتمع العربي يحظى بلغة اتصال مشتركة يتواصل بها المتحدثون من بلدان مختلفة ، ولا توجد معوقات لهذا الاتصال ، لأنه أقرب إلى العربية من العامية المتباينة في الاختلاف ، فبعض اللهجات يستعجم علينا فهمها ، واللغة المشتركة هي التي تحظى باهتمام الباحثين في المقام الأول . واللغة المكتوبة على ما نالته من اهتمام القدماء ، وما أضفوه عليها من قداسة وتعظيم ، إلا أن واقعنا الحديث يشهد بغير ذلك ، فالخطاب المنطوق العادي هو صاحب المقام الأول في الأداء الاجتماعي والمعبر عن نشاطه ، يقول الدكتور بشر: « الكلام المنطوق هو المادة الحقيقية للدرس اللغوي ، أما اللغة المكتوبة بالرغم من صلاحيتها مادة للدرس اللغوي تقابلها صعوبات جمة في الطريق من أهمها فقدان المسرح اللغوي ، وفقدان النطق الفعلي » [1]. ونتيجة لعدم اهتمام المسئولين باللغة ، ودعم مؤسساتها ، واستخدامها في وسائل الإعلام واعتبارها لغة رسمية في جميع المصالح ، أصبحت العامية هي لغة الخطاب الأول اجتماعيا حتى في الأوساط الرسمية والطبقات الراقية التي كانت تعد العامية لغة السوقة وتنأى عن التلفظ بها احتكارا لها وترفعا عن التشبه بالعامة، وكان هذا شأن جميع المجتمعات ، وقد زاد بعض المحدثين الطين بلة ، عندما هرولوا وراء البحوث الغربية في لغة

---

(1) دراسات في علم اللغة . دكتور كمال بشر ، دار المعارف ، ط1973م . ص58 .

الحديث اليومي، ونقلوا عنهم معتبرين أن ذلك يتساوق مع اللغة العربية ولهجاتها العامية . ولم يسلم الغربيون بالخطاب العامي إلا بعد أن تغلب على لسان المجتمع ، يقول ماريوباي: «وأولى علم اللغة معظم اهتمامه للغة المتكلم ، وإن كان يوجه كذلك إلى اللغة المكتوبة شيئا من الاهتمام » [1]. ويرجع سبب انتصار العامية على الفصحى في الخطاب اليومي إلى ميل المجتمع إلى اليسر والبساطة في الأداء ، فاللغة الفصيحة تتعثر على لسان مجتمع فقير لغويا لم يتمرن لسانه منذ الصغر عليها ، والنطق أيسر كثيرًا من الكتابة ، والفرد يستطيع أن يعبر في حديثه العادي بالاستعانة بحركات جسمية عما يريد على عكس حالته إذا ما شرع في الكتابة التي يفتقد فيها إلى الأسلوب المعد الذي يصلح للكتابة ، وكذلك عوزه إلى اللغة التي تسعفه بالكلمات ، التي لم ينشأ عليها لسانه في الصغر فكيف ينطق بها ؟

ويبين تشومسكي أسباب الاهتمام بالغلة المنطوقة ، فيقول إن « معظم علماء اللغة يرون أن من البديهي أن يأتي الكلام أولا أو بعبارة أخرى ، لأن سلسلة الأصوات rang of sound التي تصدر عن أعضاء النطق هي الوسط الذي تتشكل منه اللغة ، أما اللغات المكتوبة ، فهي نتيجة تحول الكلام إلى صور مرئية « visual » ، وكل اللغات المعروفة بدأت أولاً كلغة منطوقة ، وهناك بعض اللغات لم تكن مكتوبة من قبل البتة ، ثم خضعت للكتابة في عهد قريب جدا » [2]. ويرجع تدهور الفصحى ، إلى الاهتمام بالعامية والاعتراف بها لغة رسمية، وهذا يشكل جزءا من المشكلة ، والسبب الرئيسي ، هو عدم الاعتراف باللغة الفصحى لغة رسمية في كافة مؤسسات الدولة ، وخاصة الإعلامية لما لها من دور رئيس في تثقيف الأميين عن طريق السمع . وقد انطلقت نداءات عديدة تدعو إلى اتخاذ العامية بديلا للفصحى العربية ، مقلدين في ذلك الغربيين ، الذين رفعوا لواء لغة الخطاب اليومي .

ويؤكد تشومسكي دعوته إلى اللغة المنطوقة فيقول: « من الضروري أن نعي أن اهتمامنا

---

(1) أسس علم اللغة ماريوباي: ترجمة وتعليق أحمد مختار عمر . عالم الكتب ط2 . 1983م – 1403هـ . ص35 .

(2) نظرية تشومسكي اللغوية ، ص42 .

ينصب على اللغة المنطوقة دون المكتوبة » [1] فقد أصبح أمرا مسلما به في علم اللغة اعتبار الكتابة ، نظاما ثانويا للغة ، وظهر من بين العرب من يدعو إلى الاعتراف بالعامية – متأثرين بالغربيين ، واللغات الأوربية ورأوا ضرورة ذلك في ظل الأجهزة الحديثة التي تغنيه عن التدوين فيقولون: ولعل من الأسباب التي سفهت من قيمة الخطاب المنطوق قديما ، أنه عرضة للضياع والتغير ؛ لأنه غير محفوظ في قوالب كتابية ، أما الآن ،فإن التسجيلات والأشرطة وغير ذلك من أشكال، والأحاديث المحفوظة تحفظ اللغة مثل الكتابة [2] .

ويقول الدكتور محمد العبد: « ويمكننا الآن القول بأن الكلام يتمتع حقا بميزات تفتقدها عملية التسجيل الكتابي للحدث التبليغي ، فالإنسان يمكنه أن يمارس الكلام في الوقت نفسه الذي يباشر عملا آخر يدويا كما يمكنه ملاحظة اتساع اللغة المنطوقة لكل مجالات الحياة الإنسانية ونشاطاتها ، بما فيها من دقائق وشئون صغيرة يومية [3] .

وحري بالإشارة هنا أن الكتابة تظل عاجزة – إلى حد ما – عن أن تكون تمثيلا دقيقا متكاملا للكلام ، فضلا عن عجز الكتابة عن إظهار صورة أمينة للغة المنطوقة هجائيا أو فنونولوجيا في بعض الأحيان ، فإن الكتابة – بأعرافها المستقرة الثابتة – لا تمتلك أدوات تسجيل الجوانب الموضوعية غير اللغوية في الحدث التبليغي ، أو أثناء عملية التكلم speaking مثل حركات اليد وتعبيرات الوجه ، وإيماءات الرأس ، والذراعين ، والرجلين أحيانا ، وإشارات الجسم الدالة لغويا واجتماعيا بوجه عام general bodilygesture ، ولابد أن تدل اللغة المكتوبة على هذه الجوانب غير اللغوية ، وذلك بالوصف اللغوي الصريح ، على نحو ما نجد عادة في لغة الرواية والمسرحية (من إشارات الروائي إلى كيفية حديث الشخصية ، وكذلك الكاتب المسرحي والمخرج في كيفية أداء الكلام والإلقاء على

---

(1) نظرية تشومسكي اللغوية لايونز (جون) ترجمة وتعليق دكتور حلمي خليل . دار المعرفة الجامعية الإسكندرية 1985م ص42 .

(2) اللغة المكتوبة والمنطوقة (بحث في النظرية) ص30 . وأسس علم اللغة لماريوباي ، ترجمة أحمد مختار عمر ، ط2/ 1403هـ 1983م ص39 .

(3) محمد العبد: اللغة المكتوبة واللغة المنطوقة ص30 .

نحو يرتبط بالحدث أو الموضوع)[1]. وليس هذا مبررًا للاعتراف بالعامية ، وإهمال الفصحى ونظامها الكتابي ، لأن الخطاب المنطوق هو الذي فذ عن قواعد اللغة والكتابة ، وليس هذا في العربية وحدها بل في جميع اللغات .

وقد دفعت الفروق السابقة بين المكتوب والمنطوق إلى القول « إن الصورة المكتوبة للغة ، التي كانت ولا زالت ، وستظل ذات أهمية ضخمة للجنس البشري في نقل المعاني من مكان إلى مكان عبر السنين (على الرغم من تضاؤل قيمتها نسبيا أمام وسائل القرن العشرين المختلفة في تسجيل أصوات الكلام المنطوق) . فالكتابة عند ماريوباي مفيدة ومضرة؛ إنها مفيدة بمقدار ما أمدتنا به من مادة لتلك اللغات التي اختفت من عالم الوجود . وهي مضرة ، لأنها ليست دائما أمينة في إعطاء الصور المنطوقة كما هي ، بل ربما كانت خادعة ومضللة . وليس هناك مثال في هذا المقام أدل على التعبير عما نقول من طريقة الهجاء الحديثة للغة الإنجليزية التي تعطي صورة جزئية ، وكثيرا ما تكون مضللة لطريقة النطق اليوم»[2].

ونقول في نهاية المطاف: لسنا من أنصار العامية ، معاذ الله – ولا ندعوا إليها ، ولا نسير خلف من حملوا لواءها ، ولسنا من أنصار بعض العرب والمستشرقين الذين يدعون إلى استبدال اللغة الأم الفصحى وما تملكه من ثروة لغوية أصيلة باللهجات العامية ، والذين توهموا أن العربية الفصحى تعوق حركة التقدم ومسيرة الحضارة ، وهم في هذا يتمثلون بأوربا التي استبدلت لغاتها بلغات محلية ، فاختارت كل دولة لهجة اتخذتها لغة ، فظهرت اللغات الأوربية الحديثة ، التي تدرس بها العلوم الحديثة ، هذا شأن أوربا التي لا تنتمي جميعها إلى قومية واحدة ولا تملك تراثا واحدا ، ولم تك لديها لغة حضارة ، وتراث ، ومن هذا اتخذت أوربا اللاتينية لغة مشتركة في العلوم ، لتتفادى مشكلة اختلاف اللغات .

ولغتنا العربية ترقى عما عليه اللغات الأوربية ، فهي في المقام الأول لغة دين ، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ ﴾ [يوسف: 2] . وقال تعالى: ﴿ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ۝١٠٣ ﴾ [النحل: 103] و﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ

---

(1) المصدر السابق ص31 .

(2) ماريوباي: اسس علم اللغة ص 60 واللغة المكتوبة والمنطوقة ص31 .

﴿تَعۡقِلُونَ ۝٣﴾ [الزخرف: 13]

ولو علم الله تعالى في العربية تقصيرا في البيان والتبين لما ألزم عباده المؤمنين بنص القرآن العربي يتعبدون به ، وأي لسان آخر يترجم إليه القرآن لا يسمى قرآنا بل تفسيرا وشرحا ، ولا يسمى كلام الله ، فكلام الله تعالى هو النص العربي المحفوظ .قال تعالى: ﴿كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾ [فصلت: 3] . وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣﴾ [الزخرف: 13] . وليت من يعادي لغة القرآن الكريم يعقل ، ويهتدي إلى صوابه ، ويعلم أن الله تعالى لم يجعل لها بديلا، ولو كان في هذا اللسان خلل أو ضعف لما ألزمنا اتباع لفظه العربي ، ولو كان في دوران الزمان به عيب يشينه لما أوجب التزامه، والنص عليه .

واللغة العربية لغة الحضارة الإسلامية عاشت في خدمتها زهاء ألف وأربعمائة سنة ومازالت العربية وافية بمتطلبات الحضارة الحديثة الوافدة ، ولم تألو جهدا في التعبير عنها وسد حاجاتها إلى مفردات مولدة تعبر عن المبتكرات الحديثة . واللغة العربية لغة تراث سبق ظهور الإسلام بنحو ستمائة سنة تقريبا – وصلنا منه تراث مائتي سنة قبل الإسلام شعرا ونثرا- ومازالت لغة الإسلام والعرب والتراث حتى الآن، وستظل إلى قيام الساعة إن شاء الله، بفضل كتاب الله تعالى العربي . وتعد العربية بهذا صاحبة أضخم تراث وصاحبة أطول لغة خطاب في التاريخ ، فليس من بين لغات العلم من تطاول العربية في تاريخها الطويل ، بل تعد العربية أقدم لغة سامية ، وقد أثبت العلماء أن تاريخ اللغات السامية التي وصلتنا آثارها يرجع إلى ما قبل الميلاد بنحو ألفين وخمسمائة عام ، ولكن لم تصلنا آثار عن اللغة العربية ، لأنها لم تك مكتوبة ، وما وصلنا مكتوبا قليل جدا ، لكن علماء اللغة الذين درسوا تاريخ اللغات العالمية أكدوا أن اللغة العربية هي أقرب اللغات السامية إلى السامية الأم ؛ لاجتماع كثير من خصائص اللغات السامية فيها ، وذهب بعضهم إلى أنها اللغة الأم ، وأصابها تطور وتغيير في كثير من مظاهرها .

ولو أننا اعتمدنا رأي من رأي أن التراث العربي يبدأ قبل الإسلام بنحو أربعمائة سنة أو يزيد وهي الفترة التي أطلق عليها « الجاهلية » والتي وصلنا بعض تراثها الأدبي شعرا

ونثرا ، ستصبح العربية أيضا إمام اللغات العالمية المعاصرة في طول تاريخها وأنها أطول لغة خطاب اجتماعي ولغة أعظم تراث إنساني ، وهي اللغة الوحيدة في العالم التي احتفظت بمظاهرها القديمة في المفردات والقواعد ، وغيرها من اللغات شابها اختلاف كبير عما كانت عليه وتخلصت من كثير من مظاهرها القديمة ، وتخلصت من القواعد وبدلت مفرداتها ، فأصبحت غريبة عن الأصل ، والفضل في حفظ العربية يرجع إلى القرآن الذي يعد القلعة الحصينة التي تمنع اللغة العربية من أعدائها . واللغة العربية أيضا لغة قومية لأمة عربية واحدة تمتد من الخليج شرقا إلى المحيط غربا ، وتنتشر العربية بين المسلمين خارج هذه المنطقة وتعد لغة ثانية بعد اللغة الوطنية .

وقد ذكرنا آراء العلماء في اللغة المنطوقة لندرك الخطر الذي يواجه العربية في مسيرتها ، وأن اللهجات العامية المفككة في الوطن العربي تهدد أمنها وسلامتها ، ويجب النظر في كافة الأسباب التي أهلت الخطاب العامي لهذه المنزلة الواسعة ، لنجعل أسباب نموه وانتشاره أداة لنشر العربية الصحيحة بين أبناء الأمة ، لتكون بديلا له ، وهذا لا يتم إلا بإخلاص النية لله تعالى ولدينه وصدق العزم عليه .

وهذه غايتنا التي لا نألوها جهدا ، والله تعالى حسبنا في ذلك . والحمد لله رب العالمين .

obeikandl.com